Saber KOUKI¹

**EVIDENCE FOR MONOTHEISM BETWEEN RELIGION AND
PHILOSOPHY**

<http://dx.doi.org/10.47832/2717-8293.6-3.6>

Research Article

Received:

23/04/2021

Accepted:

19/05/2021

Published:

01/07/2021

Abstract:

The research is about the Islamic faith and it is interested in proving the monotheism issue from an Islamic and rational point of view.

This will be fulfilled through a survey of evidences from Sunnah and a reading into philosophic approaches of the most well-known Arab-Islamic philosophers and thinkers such as ELFARABI, Ibn-SINA, el kendy, Ibn Roched and Cheik Mohamed Abdou This research aims mainly at:

- Firmly establishing Religious thinking attempting to reconcile religion and philosophy.
- Drawing a path where Ideology and philosophy could huddle together in harmony.

Key words: Monotheism, Philosophy, Religion.

This article has been
scanned by iThenticat
No plagiarism detected

Copyright © Published
by Rimak Journal,
www.rimakjournal.com

Rimar Academy, Fatih,
Istanbul, 34093 Turkey
All rights reserved

¹ Reesearcher, Ezzitouna University, Tunisia, Kouki.saber.2609@gmail.com, <https://orcid.org/0000-0003-0269-9671>

أدلة التوحيد بين الدين و الفلسفة

صابر الكوكي²

الملخص

يعتبر البحث في وحدانية الله تعالى بحثاً في العقيدة الإسلامية إذ هي ترتكز على مبدأ التوحيد باعتباره أول ركن من أركان الدين و لما كان التوحيد بهذه المنزلة من الأهمية فإنه يثير التساؤل حول مفهومه و معناه، و هل يمكن إثباته حقاً من الناحية العقلية خاصة و أنه مسألة غيبية لا تنتمي إلى عالم الحس. و كيف يمكن البرهنة على الوحدانية بأسلوب علمي يعتمد على المنهج الرياضي و هي حقيقة مستفادة من مصدر ديني ؟ و لعل هذه الإشكالية دعت العلماء و الفلاسفة خاصة إلى صياغة خطاب توفيق يجمع بين النظرة الشرعية للتوحيد و النظرة الفلسفية المرتكزة على حجج و مناهج متنوعة خاصة المنهج الرياضي و القياس البرهاني المنطقي، غايتهم من كل ذلك إزالة الحيرة العقلية و ترسيخ الفكر الديني على أسس متينة و تركيز العقيدة في النفس انطلاقاً من إثبات أن الحقيقة الشرعية و الحقيقة العقلية لا تتناقضان بل تتكاملان أو هما وجهان لعملة واحدة. و لتوضيح ذلك قمنا بإنجاز هذا البحث الذي يعرض الأدلة النقلية و الفلسفية لمبدأ التوحيد، و الله ولي التوفيق. الكلمات المفتاحية: التوحيد، الدين، الفلسفة.

المقدمة:

- التوحيد: المبحث اللغوي والاصطلاحي:

1- لغة:

أ- التوحيد، مصدر الفعل المضعف من مادة « و. ح. د » و معناه لغة جعل « واحداً » أو « بقي واحداً » و من ثم كان معناه في مصطلح الكلاميين وحدانية الله، أو توحده بكافة معانيه، ولم يذكر هذا المصدر في القرآن، ولم يرد فيه فعل من هذه المادة أو من شبيهتها «أ. ح. د» لكن صاحب لسان العرب فصل الكلام في المدلولات اللغوية للصيغ المختلفة المشتقة من هاتين المادتين بالنسبة لله تعالى و بالنسبة للإنسان (دائرة المعارف الإسلامية - م 5).

ب- وفي لسان العرب تجد ما يلي: وحد: الواحد: أول عبد الحساب و الوحدان جمع الواحد، والوحد والأحد، كالواحد همزته أيضاً بدل من واو، والأحد أصله الواو. والواحد بني على إنقطاع النظير وعوز المثل، والوحيد بني على الوحدة والإنفراد عن الأصحاب عن طريق بينونته عنهم. والواحدة في معنى التوحد، وتوحد برأيه أي تفرد به، ودخل القوم موحد موحد وأحاد أحاد أي فرادى واحداً واحداً (ابن منظور).

ج- و التوحيد الإيمان بالله وحده لا شريك له والله الواحد الأحد ذو الوحدانية والتوحد، والله الأوحد والمتوحد وذو الوحدانية، و من صفاته الواحد الأحد، قال أبو منصور وغيره الفرق بينهما أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد، والواحد اسم بني لمفتتح العدد. وقيل الواحد هو الذي لا يتجزأ ولا يثنى ولا يقبل الإنقسام ولا نظير له ولا مثل، ولا يجمع هذين الوصفين إلا لله عز وجل. قال الأزهري: وأما اسم الله عز وجل أحد فإنه لا يوصف شيء بالأحدية غيره، لا يقال رجل أحد ولا درهم أحد، لأن أحد صفة من صفات الله عز وجل التي استخلصها لنفسه ولا يشركه فيها شيء (ابن منظور).

د- و الواحد من صفات الله تعالى، معناه أنه لا ثاني له ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد، فأما أحد فلا ينعت به غير الله تعالى كما ذكرنا آنفاً، وتقول أحدث الله تعالى ووحدته، وهو الواحد الأحد. وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل ذكر الله وأومأ بإصبعيه فقال له: أحد أحد أي اشر بإصبع واحدة (ابن منظور).

2- اصطلاحاً:

² د. د، جامعة الزيتونة، تونس، Kouki.saber.2609@gmail.com

أ- وعلم التوحيد والصفات مرادف في الاصطلاح لعلم الكلام، ويخرج المعتزلة من هذا الحد الصفات، ويجعلون الأساس التوحيد فقط.

على أن فكرة التوحيد أبعد ما تكون عن البساطة، فهو إما ظاهر وإما باطن: من معانيه أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ومن معانيه أن الله هو الموجود الحقيقي وكل ما سواه وجوده ظل وجود الحق. وقد يتوسع في ذلك إلى القول بالحلول أي أن الله هو الكل. والخلاصة أن التوحيد هو القول بأن لا إله إلا الله أو القول بالحلول (دائرة المعارف الإسلامية - م 5). ب- وحقيقة التوحيد إعتقاد عدم الشريك في الألوهية وخواصها. ويرى ابن خلدون أن المعتزلة في التوحيد ليس الإيمان أو التصديق وحده، بل الكمال في أن يحصل النفس حال يحصل عنها علم إضطراري هو توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله. وقريب منه ذكره التهانوي من أن التوحيد مراتب، نها ما كان علميا بالبرهان وهو الحاصل للنظر بأدلة النقل والعقل، ومنها ما كان عينيا مصدره الوجدان بأن يجد صاحبه بالذوق والمشاهدة عين التوحيد - أي توحيد الله في ذاته وصفاته وأفعاله (دائرة المعارف الإسلامية - م 5).

ولما كان علم التوحيد مرادف لعلم الكلام، فإنه ينطبق عليه قول ابن خلدون بأنه « علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين في الإعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد » (ابن خلدون).

ومهما اختلفت تعاريف التوحيد فالمراد أنه العلم الذي يبحث فيه عن الله وصفاته.

ج- غير أن الدكتور محمد حسين بن سعيد بنجر يذهب إلى التدقيق أكثر في هذه المسألة فيقول: واعلم أن التوحيد الواجب معرفته هو توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية. فأما توحيد الربوبية فهو الإقرار بأن الله هو خالق لكل شيء وأما توحيد الألوهية فهو أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ونقوم بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وأن نتعبد بما تعبدنا الله به من إحلال الحلال وتحريم الحرام ونقوم بما فرضه الله ونتجنب ما نهى عنه ونتمسك بما شرع لنا من سلوك وأخلاق ونسك (محمد حسن بن سعيد بنجر).

II- أدلة التوحيد النقلية:

1- معنى لا إله إلا الله:

- التوحيد أول ركن من أركان الإسلام، ونعبر عنه بقوله لا إله إلا الله، وإذا كان الأمر على هذا النحو وجب علينا تفصيل القول في معنى لا إله إلا الله، ذلك أن هذه الكلمة العظيمة هي التي تشهد الله بها لنفسه وشهد بها له ملائكته وأولوا العلم من خلقه (الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

قال تعالى: (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو (الشيخ محمد بن عبد الوهاب)).

فلا إله إلا الله هي كلمة الإسلام، لا يصح إسلام أحد إلا بمعرفة ما وضعت ودلت عليه، وقبوله والإنقياد للعمل له. وهي كلمة الإخلاص المنافية للشرك، وكلمة القوى التي تقي قائلها من الشرك بالله، فلا تنفع قائلها إلا بشروط سبعة: (الأول) العلم بمعناه نقيا واثباتا. (الثاني) اليقين، وهو كمال العلم بها المنافي للشك والريب. (الثالث) الإخلاص المنافي للشرك. (الرابع) الصدق المنافي من النفاق. (الخامس) المحبة لهذه الكلمة ولما دلت عليه والسرور بذلك. (السادس) الإنقياد بحقوقها، وهي الأعمال الواجبة لإخلاص الله وطلبها لمرضاته. (السابع) القبول المنافي للرد، فقد يقولها من يعرفها، لكن لا يقبلها ممن دعاه إليها تعصبا وتكبيرا كما هو قد وقع من كثير (الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

إذا عرفت ذلك فقوله (لا إله إلا الله): فلا نافية للجنس، والإله هو المألوه بالعبادة، والذي تأله القلوب وتقصد رغبة إليه في حصول نفع أو دفع ضرر كحال من عبد الأموات والغائبين والأصنام، فكل معبود مألوه بالعبادة، وخبر " لا " المرفوع محذوف تقديره حق. وقوله إلا الله " إستثناء من الخبر المرفوع، فالله سبحانه هو الحق، وعبادته وحده هي الحق، وعبادة غيره منتفية بـ " لا " في هذه الكلمة (الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

قال تعالى: (ذلك بأن الله هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل) (الحج 62). فلا إلهية ما سواه باطلة فدلت الآية على أن صرف الدعاء من أفرادها، فما صرف منها لغيره تعالى فهو باطل والقرآن كله يدل على أن الإلهية هي العبادة كما قال تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون، إلا الذي فطرني) (الزخرف 26).

فذكر البراءة من كل معبود سوى الله، ولم يستثنى إلا عبادة من فطره سبحانه وتعالى، ثم قال: (وجعلها كلمة باقية في عقبه) (الزخرف 26). أي لا إله إلا الله، فعبر عن الإلهية بالعبادة في النفي والإثبات. وقال تعالى (قل إنما أمرت أن أعبد الله مخلصا له الدين) (الزمر 11). والدين هو العبادة، وقال تعالى: (قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به)، (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد) (الرعد 36) أي الذي لا تصلح الإلهية إلا له وحده، فإنتمت الألوهية وبطلت في حق كل ما سوى الله. والقرآن يبين بعضه بعضا ويفسره، والرسول إنما يفتتحون دعوتهم بمعنى لا إله إلا الله. قال تعالى: (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم أعبدوا الله ما لكم من إله غيره) (الأعراف 59). فتبين أن الإلهية هي

العبادة، وبهذا قال قوم هود لما قال: (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره. قالوا أجبنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) (الأعراف 70/69).

فتبين بالآية أنهم لم يستنكفوا من عبادة الله، لكنهم أبو أن يخلصوا العبادة لله وحده، فلم ينفوا ما نفتته لا إله إلا الله، فيستوجبوا ما وقع بهم من العذاب لعدم قبولهم بما دعاهم إليه من إخلاص العبادة، كما قال تعالى: (وذكر أبا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النار من بين يديه ومن خلفه) (الأحقاف 21). وهم الرسل جميعهم (ألا تعبدوا إلا الله) (الأحقاف 21). وهذا هو معنى لا إله وقوله (إلا الله) هو المستثنى في كلمة الإخلاص (الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

2- أقسام التوحيد:

أ- توحيد الألوهية: وهي العبادة، فهي تتعلق بأعمال العبد وأقواله الباطنة والظاهرة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك بالله، وهذا هو الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب بالإنذار عنه، وترتبت عليه عقوبات الدنيا والآخرة في حق من لم يتب منه. ويسمى هذا التوحيد إذا كان الله وحده (توحيد القصد والطلب والإرادة) (الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

ب- توحيد الربوبية: وهو العلم والإقرار بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وهو المدبر لأمر خلقه جميعهم. كما قال تعالى: (قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله. فقل أفلا تتقون.) (يونس 31) وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير، وهذا النوع قد أقر به المشركون كما دلت عليه الآيات.

ج- توحيد الاسماء والصفات: وهو أن يوصف الله تعالى بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من صفات الكمال التي تعرف بها سبحانه وتعالى إلى عباده، ونفى ما لا يليق بجلاله وعظمته. وأهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً يثبتون الله تعالى هذا التوحيد على ما يليق بجلال الله وعظمته إثباتاً بلا تمثيل، وتزنيهاً بلا تعطيل، وهذا النوع والذي قبله هو (توحيد العلم والإعتقاد) (الشيخ محمد بن عبد الوهاب).

3- القرآن واثبات التوحيد:

- لقد جعل القرآن من أهدافه الكبرى إثبات التوحيد، ويستدل في ذلك بالمشاهدة الصادقة (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (الأنبياء 22).

هذه المشاهدة العادية تلبس صورة منطقية رائعة، فلو كان هناك إله غير الله إذن لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض. على أن القرآن لا يكتفي بالمشاهدة وبالمنطق وإنما يرجع بالإنسان إلى وجدانه، ويثبت الوحدة عن طريق النظام والعناية والتدبير (عبد الحليم محمود)، فيقول في آيات رائعة: (قل الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى الله خير أما يشركون. أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبئتنا به حقائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها أله مع الله بل هم قوم يعدلون. أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً وجعل لها رواسي وجعل بين البحرين حاجزاً أله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أله مع الله قليلاً ما تذكرون. أمن يهديكم في ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بين يدي رحمته أله مع الله تعالى الله عما يشركون. أمن يبدؤا الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والأرض أله مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) (النمل 59-64).

وانطلاقاً من هذه الأدلة، فإن الشرك إثم عظيم، إذ يقول سبحانه وتعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً) (النساء 48).

والآيات التي تشير إلى وحدانية الله كثيرة: قال تعالى: (والإلهكم إله واحد، لا إله إلا هو الرحمان الرحيم) (البقرة 163) وقال (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) (آل عمران 2) وقال (ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه. إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون) (مريم 35) وقال: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون) (المؤمنون 91-92) وقال: (لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار) (الزمر 4). وقال: (قل هو الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) (الإخلاص).

ومثل هذه الآيات كثيرة في القرآن الكريم، وتتضمن توحيد الله تعالى في ذاته وأفعاله، وتزنيهاً عن مشابهة المخلوقين، وهي بذلك تقيم الأدلة على أن للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم، والقدرة، والإرادة وغيرها، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه وإن لا نسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم وأنهم له وإليه راجعون (د. محمد عمارة).

4- السنة وإثبات التوحيد:

لما كان التوحيد أول ركن من أركان الإسلام كما ذكرنا آنفاً، فإن السنة النبوية في أولته أهمية كبرى من حيث إبرازه والتأكيد عليه ففي حديث الإيمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، مجيباً عن سؤال جبريل عليه السلام حينما قال له: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً...." (الإمام مسلم).

وفي حديث آخر عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بني الإسلام على خمسة، على أن يوحد الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج." (الإمام مسلم)

وعن عبدة السلمي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ابني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله ويكفر بما دونه وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان. (الإمام مسلم)

وعن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة أخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله (الإمام مسلم).

وعن سعيد بن المسيب عن أبيه قال: "لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله. فقال أبو جهل وعبد الله بن أمية: يا أبا طالب أراغب عن ملة عبد المطلب. فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويعيد له تلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم هو على ملة عبد المطلب وأبي أن يقول لا إله إلا الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لأستغفرن لك ما لم أنه عنك" (الإمام مسلم).

ووعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان" (الإمام مسلم).

وهذا قليل من كثير مما ورد من أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يخص تأكيده على مبدأ التوحيد كركن أساسي لا غنى عنه ولا تساهل فيه، وهذا الإلحاح الواضح في جملة الأحاديث المذكورة لدلالة واضحة على أن السنة النبوية المطهرة تهدف إلى ترسيخ عقيدة التوحيد وتثبيتها في قراة أفئدة وعقول المسلمين حتى تمحي عنهم آثار الوثنية والشرك التي طبعت حياتهم الجاهلية، ونظرا إلى حداثة عهدهم بهذا الدين الجديد الذي قلب الأوضاع رأسا على عقب، محققا ثورة في الرؤى وفي الممارسة معا.

III- أدلة التوحيد الفلسفية:

1- وحدانية الله وتناهي جرم العالم عند الكندي: (توفي 870 م)

لقد بحث الكندي وهو فيلسوف العرب، وأول من تبحر في فنون الحكمة، وأحكم جميع العلوم، وثبت المعاني الفلسفية في ألفاظ عربية دقيقة. (د. جميل صليبا) مشكلات الألوهية، وتناولها من منظور فلسفي يقوم على أساس رياضي تمزج فيه الأفلاطونية الحديثة بالفيتاغورية (د. جميل صليبا).

وتجدر الإشارة إلى أنه قد تطرق إليها من خلال رسالتي الأولى "في الفلسفة الأولى" والثانية في "وحدانية الله وتناهي جرم العالم" وفي هاتين الرسالتين يبحث الكندي في طبيعة الله ووجوده وصفاته.

ويذكر أن من صفاته أنه تعالى واحد تام، فالوحدة من أخص صفات الله إذ هو واحد بالعدد واحد بالذات، وواحد في فعله بحيث لا يمكن أن يحدث تكثر في ذاته نتيجة لفعله وهو لا يتجاوز فيه الكثرة لأنه ليست له هيولة أو صورة أو كمية أو كيفية أو إضافة وليس له جنس أو فصل أو شخص أو خاصة أو عرض عام، وكذلك فهو ليس متحركا ومن ثم فهو وحدة محضة (د. محمد علي أبو ريان).

ويمضي الكندي في البرهنة على الوحدانية بأسلوب يعتمد المنهج الرياضي مبرزا فكرة التناسب في كل شيء إذ يعتبر أن محدث العالم سبحانه واحد لا شريك له، ولا تركب في ذاته، ذلك أنه لو كان آلهة متعددون لكانوا مركبين من صفة تعمهم جميعا، وهي أنهم فاعلون ومن صفات تميز بعضهم، فهم إذن: "مركبون مما عمهم ومن خواصهم" والمركبون لهم بالضرورة، مركب، لأن التركيب يستلزم مركبا، وإذن، فإن كان هذا المركب واحدا فهو الفاعل الأول سبحانه، وإن كثيرا فهم مركبون... وهو يخرج بلا نهاية.

وقد إتضح بطلان ذلك.

فإذن: ليس كثيرا، بل واحد غير متكرر، سبحانه و تعالى عن صفات الملحين علوا كبيرا، لا يشبه خلقه لأن الكثرة في الخلق: موجودة وليس فيه بته، ولأنه مبدع، وهم مبدعون ولأنه دائم وهم غير دائمين (عبد الحلیم محمود). كما يعتبر أن الفلك الأعلى الذي يعتبر أساس الكون فيما بعد إنما هو من خلق الله مباشرة وقد أوجده تعالى في وقت محدد و بإمكانه إعدامه ساعة يشاء (د. ج كتورة).

هكذا دافع الكندي بأدلته الفلسفية عن مبدأ التوحيد محاولة منه التوفيق بين الحقائق التي يهتدي إليها بالنظر العقلي و الحقائق المستفادة من مصدر ديني، أضف إلى ذلك أنه بواسطة منهجه الرياضي وسعة أفقه العملي، وجمعه بين تعاليم الفيتاغوريين والأفلاطونيين والمشائين، تمكن من صياغة رؤية متماسكة لظواهر الوجود (د. جميل صليتا). إذ أنها عنده مرتبطة بعضها، والأعلى يؤثر في الأدنى، والله واحد وأزلي ومبدع، لم يسبقه وجود، ولا ينتهي له وجود، ولا يكون وجود إلا به (د. جميل صليتا).

2- صفات واجب الوجود ومبدأ الفيض عند الفارابي:

يعرض الفارابي [(247 هـ / 870 م)] [(339 هـ / 950 م)] التوحيد الإلهي من باب معالجته لمشكلة من أهم المشكلات الفلسفية، وهي مشكلة الكثرة والوحدة وإن هذه المشكلة عاناها الفكر الفلسفي اليوناني منذ نشأتها (د. محمد علي أبو ريان)... ولذلك فهو سيرهن على وحدة الفعل الإلهي حتى عبر نظرية الوسائط ووسائط الوسائط (الفارابي). وبذلك يغدو الإنسان جزءاً من وحدة وجودية مصدرها وحدة الله الذاتية، وما الكثرة والإختلاط في الوجود إلا بعد ذاته وظاهريته الأولى التي هي الوحدة (الفارابي).

ولعل هذا القول يتطلب مزيد الإيضاح والتفصيل ولذلك يمكن القول أن الفارابي يعتبر في كتابه آراء المدينة الفاضلة أن الصفات لا تشكل كثرة في ذات الواحد بل هي وحدة تامة: " ولذاته الوحدة المطلقة والجمال السرمدي، والبهاء الاسمي وهو أشد مبتهج بذاته، لسي بمادة و لا تتعلق به المادة بأي وجه من الوجوه إذ هي شر كما قال أفلوطين قبل الفارابي. ولا برهان عليه بل هو برهان جميع الأشياء، و العله الأولى لسائر الموجودات وتعيينه هو عين ذاته " (د. محمد علي أبو ريان).

ومعنى هذه العبارة الأخيرة أن الفارابي يفضل أن تعرف ذات الله من مضمون فكرتنا عنه، ويرى أن هذا الطريق هو الذي يؤدي إلى معرفة الله وهو الدليل الأنطولوجي الذي يفضل ديكارت (د. محمد علي أبو ريان). فإذا نحن تناولنا معنى الوجود الواجب بالتحليل، وسلمنا بوجود واجبين للوجود فلا بد أن يكونا متفقين من وجه ومختلفين من وجه آخر (د. جميل صليبا).

أضف إلى ذلك أن القول بأن الله واجب الوجود يتضمن البرهان على أنه واحد، لأنه تام الوجود لا يعتريه التغيير، ووجوده خلو من كل مادة، ومن كل صورة لأن الصورة لا يمكن أن تكون إلا في مادة، ولو كانت له صورة لكانت ذات مؤلفة من مادة وصورة ولكان وجوده مركبا من جزأين، وله سبب، وكيف يكون له سبب، وهو السبب الأول لجميع الموجودات (د. جميل صليبا).

ونظرا لهذا الاعتبار فالفارابي يعتبر أن واجب الوجود هو مبدأ كل فيض والكل متحد في ذاته، فهو الكل في وحدته (الفارابي) ونظرية الفيض هي النظرية التي تبين لنا كيفية صدور الموجودات عن السبب الأول. وهي نظرية مستندة من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة خلاصتها أن الله يعقل ذاته، وعقله لذاته علة صدور العالم عنه إلى شيء غير ذاته. ولا إلى عرض يطرأ عليه، ولا إلى حركة يستفيد بها حالا لم تكن له، ولا إلى آلة خارجة عن ذاته، بل العالم يفيض عنه لذاته وبذاته (د. جميل صليبا).

وإذا كان الواجب الوجود بذاته هو السبب الأول فلأنه في غاية الكمال والجمال والبهاء، ولأنه عقل محض وعقل محض و معقول محض. وإذا كنا نثبت لهذا الموجود الكامل أحسن الاسماء، فإن هذه الاسماء لا تدل على الكمالات التي لدينا، بل تدل على معانٍ أشرف تخصه في ذاته، وبعض هذه الاسماء تدل عليه من حيث هو في ذاته، وبعضها تدل عليه من حيث علاقته بالعالم، من دون أن تحدث في ذاته كثرة. ونحن لا نطلق عليه هذه الاسماء إلا على سبيل المجاز، ولا ندرك كنهها إلا بطريق التمثيل.

تلك هي آراء الفارابي في الصفات الإلهية، وهي في حقيقة الأمر مستمدة من فلسفة أرسطو، والفلسفة الأفلاطونية الحديثة، وتعاليم الإسلام، ومذهب المعتزلة، وسوف يأخذ بها ابن سينا كما سنرى (د. جميل صليبا).

3- أحدية واجب الوجود عند ابن سينا:

يؤكد ابن سينا [(370 هـ / 980 م)] الشيخ الرئيس لوجود الله عقليا أن أقسام الوجود ثلاث:

- واجب الوجود بذاته (الله)، وواجب الوجود بغيره و ممكن الوجود، وأن واجب الوجود هو العلة الأولى ومبدأ الوجود المعلول على الإطلاق. فلا توجد سيوف علة واحدة مطلقة هي واجب الوجود لأن ما سوى الواجب هي الممكنات أي الموجودات الصادرة عند المفارقة في وجودها الممكن إلى علية (د. محمد علي أبو ريان).

ويعتبر أن أول صفات واجب الوجود أنه واحد من جميع الوجوه، وسبب ذلك أن الشيء لا يوجد إلا إذا تعين وجوده، وتعينه إنما يكون بذاته أو بغيره فإن كان بذاته لم يكن إلا واحداً، لأن الماهية إذا كان تعينها بذاتها انحصر نوعها في فرد واحد. ولا يتصور إختلاف الأفراد إلا باختلاف التعينات وتعددتها.

ولا يجوز أن يكون اثنان ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا، وكل واحد منهما واجب الوجود بذاته وبالأخر، لأننا إذا فرضنا أن (أ) واجب ب (ب) و (ب) واجب ب (أ) لم يكن ولا واحد منهما واجب الوجود بنفسه، فلا يمكن أن يكون هناك إلا موجود

واحد واجب الوجود بذاته (د. جميل صليبا). إذا فمن حيث الوحدة العددية نجد أنه لا يجوز أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد لأن كل متلازمين في الوجود متكافئان، فلهما علة خارجة عنهما، فيكونان واجبي الوجود بغيرهما (د. محمد علي أبو ريان).

كذلك يتحدث ابن سنا عن أحدية واجب الوجود عند شرحه النظرية الفيض، فمن أهم المبادئ التي تستند إليها هو القول بأن الواحد من حيث هو واحد لا يصدر عنه إلا واحد، فالله واحد من جميع الوجوه فإذا صدر عنه شيء وجب أن يكون هذا الشيء واحدا بالعدد، وهذا شبيه بقول أفلاطون في كتاب التساقيات أن الواحد لا يصدر عنه إلا أقنوم ثان وهو العقل، لأن الواحد غير معين، أما الأقنوم الثاني فهو عقل و موجود و معقول معا (د. جميل صليبا).

4- الوجدانية من خلال الدليلين الفطري والشرعي عند ابن رشد: (1126 م - 1198 م)

إنطلق أبو الوليد من الأدلة الشرعية، وبين أنها تتجه إلى الحس والعقل معا، ويبدو ذلك جليا في ثلاث آيات يستدل بها ابن رشد في إثبات وحدانية الله ونفي الألوهية عن سواه. إحداها، قوله تعالى:

(لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) (الأنبياء 22) و الثانية قوله تعالى: (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون) (المؤمنون 91).

والثالثة قوله تعالى: (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا) (الإسراء 42).

فأما الآية الأولى فهي تقرر حقيقة بديهية وفطرية تشهد الملاحظة بصدقها، وهي أن وجود ملكين في مدينة واحدة يفسدها، إلا أن يكون أحدهما يفعل ويبقى الآخر عطلا، وأن أجاز هذا في الملوك فإنه لا يجوز في الآلهة (ابن رشد).

وهنا يقول ابن رشد بأنه: " متى إجتمع فعلا من نوع واحد على محل واحد فسد المحل ضرورة " فهذا معنى قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا). وأما قوله: (إذا لذهب كل إله بما خلق) فمعناه أنه إذا اختلفت أفعال آلهة فلا يمكن أن يترتب عليها فعل واحد، بمعنى ألا يكون عنها موجود واحد. ولما كان العالم واحدا وجب ألا يكون موجودا عن آلهة متعددة الأفعال (ابن رشد).

وأما قوله تعالى: (قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلا)، فمعناه أنه لا يجوز عقلا أن يوجد إلهان تتحد أفعالهما، فلو جاز ذلك لكان اتحاد أفعالهما تماما يجعلهما يتحدان في كل شيء، مما يؤدي إلى استحالة القول بالتعدد. وهذا هو المراد من قوله تعالى: (وسع كرسيه السماوات والأرض ولا يؤوده حفظهما) (البقرة 155)، وهذا هو الدليل الذي بالطبع والشرع في معرفة الوجدانية كما يقول ابن رشد (ابن رشد).

ثم يذهب ابن رشد إلى نقد دليل المتكلمين (الأشعرية) المسمى بدليل الممانعة، (ذلك أنهم قالوا: لو كان إثنين فأكثر لجاز أن يختلفا... فتبطل إرادة العاجز منهما، والعاجز ليس باله - المتكلمون قسموا الآية إلى ثلاثة أقسام وليس في الآية تقسيما حسب ابن رشد (ابن رشد) فيعتبره لا يتماشى مع الأدلة الطبيعية و الشرعية، باعتبار أن التشكيك لا يليق بالجمهور.

ويجيب قائلا: " إن الذي يقدر على إختراع البعض يقدر على إختراع الكل، فيعود الأمر إلى قدرتهما على كل شيء. فإما أن يتفقا، وإما أن يختلفا، وكيفما كان تعاون الفعل ".

وأما التداول فهو نقص في حق كل واحد منهما. والأشبه أن لو كانا أن يكون العالم إثنين فإذا العالم واحد فالفاعل واحد، فإن الفعل الواحد إنما يوجد عن واحد فإذا ليس ينبغي أن يفهم من قوله تعالى (ولعل بعضهم على بعض) من جهة إختلاف الأفعال فقط، بل ومن جهة اتفاقها، فإن الأفعال المتفقة تتعاون في ورودها على المحل الواحد، كما تتعاون الأفعال المختلفة (ابن رشد).

5- مفهوم الوحدة عند محمد عبده:

يعتبر الإمام محمد عبده أن مما يجب لله تعالى صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا.

أما الوحدة الذاتية، فتثبت بنفي التركيب في ذاته، خارجا وعقلا، فمن أحكام الواجب أن لا يكون مركبا، إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة، فيكون وجوده جملة محتاجا إلى وجود غيره، وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته، ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه وقد قلنا أنه لذاته من حيث هي ذاته، ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه، بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه.

إذن يعتبر الإمام محمد عبده أن نفي التركيب في الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية، فلا يمكن للعقل أن يحكي ذات الواجب بمركب، فإن الأجزاء العقلية لا بد لها من منشأ إنتزاع في الخارج (محمد عبده).

وأما الوحدة في الصفة: أي أنه لا يساويه في حياته الثابتة له موجود، فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس في الموجودات ما يساوي واجب الوجود في مرتبة الوجود، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات.

وأما الوحدة في الوجود وفي الفعل، ونعني بها التفرد بوجوب الوجود، وما يتبعه من إيجاد الممكنات، فهي ثابتة، لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف، تعين الآخر بالضرورة. و إلا لم يتحصل معنى التعدد، وكما

اختلفت التعيينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة (محمد عبده). ولو تعدد الواحيون لتخالف أفعالهم بتخالف علومهم وإرادتهم، وهو خلاف يستحيل معه الوفاق، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الاجاد في عامة الممكنات، فكل له التصرف في كل منها على حسب علمية وإرادته ولا مرجح لنفاذ أحد القدرتين دون الأخرى، فتنضارب أفعالهم حسب التضارب في علومهم وإرادتهم، فيفسد نظام الكون، بل يستحيل أن يكون له نظام، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات، لأن كل ممكن لا بد أن يتعلق به الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة، فيلزم أن يكون الشيء الواحد وجودات متعددة، وهو محال، فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، ولكن الفساد ممتنع بالبدهة، فهو جل شأنه واحد في ذاته وصفاته، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله (محمد عبده).

الخاتمة

إذا حاولنا أن نجمل القول ونستخلص زبدة هذا البحث فإنه يمكن القول بأن الوجدانية صفة يختص بها الله وحده دون سواه، كما تؤكد ذلك البؤرة الدلالية لمادة وحد "و.ح.د" فهي تحيلنا على معاني التفرد وعدم الشريك، بل وكذلك التميز والإكتفاء بالذات والغني عن الآخر. وأما التوحيد بوصفه مبحثاً من مباحث علم الكلام، فذلك هو الذي كان لنا منطلقاً للنظر في امره بقصد إثباته من جهة النظر الشرعي، وكذلك من المنظور الفلسفي البرهاني. فأما من جهة النظر الشرعي، فإن الدين قد اعتبر التوحيد مبدأً أساسياً لا قيام للإسلام إلا به، فشهادة لا إله إلا الله هي كلمة الإخلاص التي اجتمعت عليها الرسل، والتي ترتب عليها عبادة الله وحده بما يرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، ويسمى هذا توحيد القصد والطلب والإرادة.

أما من المنظور الفلسفي، فقد نجح الفلاسفة والعلماء ونخص بالذكر منهم الفارابي والكندي وابن سينا وابن رشد والشيخ محمد عبده في إثبات التوحيد، بما استعملوه من حجج ومناهج متنوعة في البرهنة والاستدلال، خاصة المنهج الرياضي والقياس البرهاني المنطقي، ولذلك فالتوحيد عندهم لا شك فيه إذ هو حتمية يفرضها انسجام الكون وتناسق الموجودات، وهو أيضاً العلة القصوى إذا تتبعنا علل الموجودات، وهو السبب الأول إذا نظرنا في الأسباب والمسببات، وهو الجوهر الذي يفيض عنه الوجود إذا بحثنا في الأعراض والجواهر، وهو واجب الوجود إذا بحثنا في أقسام الوجود، وهو واحد إذا بحثنا في الأفعال والخلق.

فالوجدانية إذن ثابتة بمختلف الأدلة، والأساليب بجميع أنواعها. ولئن تناغم وحى الأنبياء مع فلسفة الحكماء والعلماء فإنهما قدما لنا إجابة شافية وواضحة قضية عقدية، فمنعت عنا الشبه وزرعتنا في دائرة الإيمان، ورسمت مسارا يتعانق فيه العقل مع النقل وتتصل فيه الحكمة بالشرعية. وهكذا يتضح من جديد أن الحقيقة الشرعية والحقيقة العقلية وجهان لعملة واحدة، وبهذا يمكن القول بأن الإيمان بوجدانية الله وإن كان ضرياً من الاعتقاد لا يحتمل المناقشة وإثارة الجدل، فإنه أفرز ثراءً فكرياً في مستوى العقل العربي الإسلامي مكن من ترسيخ الفكر الديني على أسس متينة وإعلاء كلمة الحق، وبالتالي تأكيد مبدأ التوحيد شرعاً وعقلاً.

المصادر والمراجع:

- ابن خلدون: المقدمة – (دار الجيل بيروت)
 ابن رشد: مناهج الأدلة في كشف عقائد الملة – ط 1 – مكتبة الانجلو المصرية – القاهرة 1969.
 أبو ريان محمد علي: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام (دار النهضة – بيروت – لبنان).
 أبو نصر الفارابي: كتاب الفصوص – ط – مجلس دائرة المعارف العثمانية ط 1 (1926)
 ابن سعيد محمد حسني: دراسات إسلامية ونقد كتاب ثورة الإسلام
 ابن منظور: لسان العرب مكتبة مدبولي الصغير - دار المعارف م 6
 صليبا جميل: تاريخ الفلسفة العربية / الشركة العالمية للكتاب
 عبده محمد: رسالة التوحيد
 عمارة محمد: رسالة التوحيد للإمام محمد عبده
 كتورة: معجم العالم الإسلامي
 محمد عبد الحليم: التفكير الفلسفي في الإسلام
 مسلم: الجامع الصحيح
 عبد الوهاب محمد – (مجموعة التوحيد)